الباب الأول

الدراسة الدلالية

obeikandl.com

obeikandl.com

المبحث الأول:

الدلالة والصحة النحوية والغموض

لا تقتصر أهمية علم الدلالة (Semantics) على كونه جزءًا من علم اللغة أو فرعًا من فروعه، أو لأنه يعد العامل الأساسى فى الوصول إلى تحديد دقيق للتطور الدلالى التاريخى للألفاظ، بل إن أهميته تتخطى كل ذلك إلى الحد الذى يصبح فيه هذا العلم ذا أهمية كبيرة لدى المناطقة، والفلاسفة، وعلماء النفس، وعلماء الاجتماع. وعلى الرغم مما قد يبدو من ارتباط واتصال بين هذه العلوم والمجالات البحثية، إلا أن ثمة تمايزا بينها؛ ذلك أن كل علم منها له سماته، وخصائصه، ومنطلقاته التى ينطلق منها، ومن هنا يبدو اختلاف النظرة، والتناول، والهدف، والوسيلة، فى دراسة دلالة الكلمة والمعنى.

وعلم الدلالة فى أبسط تعريفاته هو دراسة المعنى، والكلمة «(Semantique) المشتقة من الكلمة اليونانية (Sêmainô)، «دل على»، والمتولدة هى الأخرى من الكلمة «Sêma» أو «العلامة» هى بالأساس الصفة المنسوبة إلى الكلمة الأصل (Sens) أو «المعنى»[١].

وإذا كان علم الدلالة يعنى دراسة المعنى، فإن هذا المعنى لا تبرزه إلا الكلمة، ولا حياة للكلمة إلا فى إطار سياق يحتويها، سواء أكان هذا السياق مكتوبا مقروءًا، أم منطوقًا مسموعًا.

وثمة فرق بين الكتابة والنطق، أو بين اللغة المكتوبة ونظيرتها المنطوقة. والنطق الإنسانى أقدم من الكتابة الإنسانية من حيث الوجود والفطرة؛ فالطفل الوليد يصاحبه لحظة خروجه إلى الحياة بعض صور الصياح والبكاء، فصدور بعض الأصوات ـ التى

---

(١) بيار غيرو: علم الدلالة.

ترجمة: أنطوان أبو زيد. منشورات عويدات، بيروت. باريس. ط ١، ١٩٨٦. ص ٦.

هى بكاء الطفل وصياحه ـ والخروج إلى الحياة يقترنان فى لحظة ما، ثم تتم بعد ذلك عملية اكتمال الجهاز النطقى على مراحل، فإذا كان الطفل وعمره سنة ونصف السنة يمتلك من الحصيلة اللغوية ما بين ثلاث كلمات إلى خمسين كلمة ينطقها مفردة، فإنه فى سن ثلاث سنوات يبلغ عدد المفردات التى تكون لديه ما يقرب من ألف كلمة ينطقها بوضوح تام[١].

وتتميز اللغة ـ أية لغة ـ بإمكانية خلق وتوليد جمل جديدة من جمل أخرى، وهو ما نسميه «التعاكس»، وهو يختلف عن الاشتقاق الذى يعنى توليد ألفاظ جديدة من ألفاظ أخرى موجودة.

ويعتمد هذا التعاكس على الإتيان بالنفى، ثم بالمقابل الضدى لما ذُكر، فقولنا: انطلقت الطائرة بسرعة، يعنى أن الطائرة لم تنطلق ببطء. وتعميم هذه الظاهرة بحيث تصبح ظاهرة مطلقة أمر فيه نظر، فإذا قلنا مثلا: المرأة ليست جميلة، فهل يعنى هذا أنها قبيحة ؟ وهل قولنا: إن الحجرة ليست واسعة، يعنى أنها ضيقة ؟ وإذا وصفنا رجلا بأنه ليس بخيلا، فهل معنى هذا أنه كريم؟.

ويمكننا بداية أن نقسم الصفات قسمين: صفات عليا، ونعنى بها تلك الصفات التى يتحقق فيها الحد الأعلى من الوصف، مثل: كبير، وسريع، وجميل، وواسع، وكريم، وصفات دنيا، وهى الصفات التى نلحظ فيها القدر الأدنى من الوصف، وهى فى الوقت ذاته تعد المقابل الضدى المعجمى للصفات العليا، مثل: صغير، وبطىء، وقبيح، وضيق، وبخيل.

ووصف الشىء بالصفة العليا ينفى عنه اتصافه بالصفة الدنيا التى تقابلها، فقولنا مثلا: الرجل كريم يعنى أن الرجل ليس بخيلا، ووصف المرأة بأنها جميلة يعنى أنها ليست قبيحة. أما نفى الصفة الدنيا عن الشىء، أو الشخص، فلا يعنى إثبات الصفة العليا له، فإذا قلنا: إن الرجل ليس بخيلا، فهذا لا يعنى أنه كريم، وإذا قلنا: المرأة

(١) انظر: د. جمعة سيد يوسف: سيكولوجية اللغة والمرض العقلى.
كتاب عالم المعرفة - الكويت. يناير ١٩٠ ص ١٦١.

ليست قبيحة، فهذا لا يعنى أنها جميلة؛ فالرجل ليس بخيلا وليس كريما، فهو بين بين، والمرأة ليست قبيحة وليست جميلة، فهى بين بين.

وإمكانية خلق وتوليد جمل جديدة من جمل أخرى تبدو واضحة فى الجمل التى تبنى على أفعال متعدية، إذ نستطيع أن نُولِّد جملا جديدة من الجملة التالية: كتبتُ الرسالة، فنقول: كُتبت الرسالة، والرسالة كُتبت، والرسالة مكتوبة... ويقل الخلق والتوليد إذا كانت الجملة تبنى على فعل لازم، كأن نقول مثلا: سقط المطر، ونما الزرع، فهنا يمكن توليد جمل اسمية فقط، فنقول: المطر ساقط، والزرع نام...

وبدهى أن الألفاظ عرضة للتغير والتطور والنمو، فالحياة متطورة، واللغة تعبير صادق عن الحياة، وما يصيب حياتنا ويعتريها من تطور وتغير لابد أن ينعكس أثره على اللغة التى نتكلمها ونعبر بها عن حاجاتنا ومشاعرنا وانفعالاتنا.

ونستطيع أن نرصد مظاهر التغير الدلالى فيما يلى:

١ - **رقى الدلالة:** كما فى لفظ (السُّفْرة)؛ إذ جاء فى تاج العروس: «السُّفْرة بالضم: طعام المسافر المُعَد للسَّفَر، هذا هو الأصل فيه، ثم أُطلق على وعائه، وما يوضع فيه من الأديم، ثم شاع الآن فيما يؤكل عليه، وفى التهذيب: السُّفرة: التى يؤكل عليها، وسميت لأنها تُبْسَط إذا أُكل عليها»(١).

٢ - **انحطاط الدلالة:** ويبدو ذلك فى كلمة (النِّسوان)، وهو جمع المرأة من غير لفظها؛ إذ شاعت هذه الكلمة على ألسنة الشعراء قديمًا، كما فى قول عمر بن أبى ربيعة:

إن قلبى بعد الذى نال منها
كالمُعَنَّى عن سائرِ النِّسوانِ

أما الآن فقد صارت مستهجنة، سواء أكان ذلك فى المستوى الأدبى للغة أم فى الخطاب العادى فى بعض البلاد كمصر، مع أنها تشيع فى الخطاب اليومى

(١) تاج العروس: مادة سفر: ٦/ ٥٢٦.

في بعض البيئات، كما في بلاد الشام، التي لا يرى أهلها حرجا أو غضاضة في استعمال الكلمة.

٣ - **تعميم الدلالة:** كما في كلمة الخمر؛ إذ كانت تعني (ما أسكر من عصير العنب)، ثم عممت الدلالة فصارت تعني كل مسكر من الشراب.

٤ - **تخصيص الدلالة:** ويتضح ذلك في كلمة (الحَجّ)، إذ كانت تعني القَصْد، فكان يقال: حَجَّ إلينا فلان، أي قَدِمَ، وحججت فلانا، أي: قصدته، ثم استقر «استعماله في القصد إلى مكة للنُّسُك والحج إلى البيت خاصة؛ تقول: حَجَّ يَحُجُّ حَجا. والحَجُّ: قصد التوجه إلى البيت بالأعمال المشروعة فرضا وسُنة»(١).

٥ - **توسيع الدلالة:** ويتجلى ذلك في الألفاظ التي تكتسب معاني جديدة لم تكن لها، وهي ما تدخل في إطار المشترك اللفظي، ومن ذلك الألفاظ الدالة على الرتب العسكرية، نحو: ملازم، ونقيب، ورائد، ومقدم، وعقيد، وعميد... ويؤدي المجاز - هنا - دورًا مهما في توسيع دلالة بعض الألفاظ؛ فنحن نقول: رأس الأمر، ورأس الجبل... ونقول أيضًا في المجال الرياضي: رأس الحربة.

٦ - **تضييق الدلالة:** ويتبدى ذلك في بعض الألفاظ التي تعد من الأضداد؛ كما في كلمة (مولى)، التي تعني المنعِم والمنعَم عليه، والمعتِق، والمعتَق، والعبد، والرب، والحليف... مما أدى إلى انحسار استخدام اللفظ ببعض هذه الدلالات، نحو: المولى بمعنى المعتِق والمعتَق والعبد، ويرجع ذلك إلى التغيرات والتطورات التي أصابت الحياة، مما انعكس أثره على طبقات المجتمع ونظام الحياة فيه.

٧ - **فقدان الدلالة:** ويبدو ذلك في العبارات الجاهزة التي ترتبط بالتعامل اليومي والإنساني وتتصل بالخطاب العادي بين الناس، كالعبارات الخاصة بالتحية والترحيب، أو المتصلة بالعلاقات الاجتماعية، أو تلك التي تذيل بها الرسائل

(١) لسان العرب: مادة: حجج . ص ٧٧٨ .

والمخاطبات الرسمية وغير الرسمية، ومثال ذلك العبارات: صباح الخير، مساء الخير، كيف حالك؟ كيف صحتك ؟ وتفضلوا بقبول فائق الاحترام، وتفضلوا بقبول خالص التقدير[١]، إذ يلاحظ أن هذه العبارات قد فقدت دلالاتها، وصارت لا تعنى شيئًا مما لها فى الأصل من دلالة. إنما هدفها ـ فى المقام الأول ـ إشعار الغير بالود، بحيث تكون العبارة الجاهزة مدخلاً إلى حديث بعينه، أو ختاما لموضوع بذاته.

وإذا كانت اللغة وسيلة للإبانة عن الفكر والإفصاح عما يدور فى الذهن، والكشف عن المشاعر والانفعالات، فمن «المؤكد أننا لا نرغب فى القول بأن الوظيفة الأولى أو الوحيدة للغة هى إمدادنا بمعلومات، أو إخبار السامعين أو القارئين بـ «الحقائق» التى لا يعرفونها (رغم أن بعض اللغويين والفلاسفة يعتقدون هذا). فكثير من معانينا ليست «تصورية» على الإطلاق، وإنما هى «خاصة بالعلاقات بين الأشخاص»، أو «اجتماعية» تربط بيننا وبين الآخرين»[٢].

وكما تفقد الألفاظ دلالاتها فى بعض الأحايين، فإنها كذلك قد تصير وسيلة للتعمية والغموض، كما أنها قد تعجز عن الإبانة والإفصاح.

أما صيرورتها أداة تعمية وغموض فتحدث حين يلجأ المرسل ـ صاحب الرسالة ـ إلى الإلغاز فى البنية التركيبية، مما يؤدى إلى عدم وضوح محتوى الشحنة الدلالية فى الرسالة الموجهة. ويبدو ذلك مثلا فيما أثر عن أن الخليفة الواثق سأل أحدهم عما يقول فى القرآن ـ وكان هذا الخليفة يقول بخلق القرآن ويعاقب من يقول بغير ذلك ـ فلم يجب، فأعاد الخليفة السؤال عليه، فقال: من تعنى يا أمير المؤمنين؟ قال: إياك. قال: مخلوق.

---

(١) انظر: د. محمود فهمى حجازى: المعجمات الحديثة. ص ٦٥.

(٢) ف. ر. بالمر: علم الدلالة. إطار جديد.
ترجمة: د. صبرى إبراهيم السيد.
دار قطرى بن الفجاءة للنشر والتوزيع، الدوحة. قطر، (١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م) ص ٥٨.

ويروى أيضًا أن أحد الخلفاء طلب من أحد الأئمة أن يصعد المنبر ويلعن على ابن أبى طالب، وكان هذا الأمر ثقيلا على قلب هذا الإمام، ولكنه صعد المنبر وقال: لقد أمرنى الخليفة أن ألعن عليا، لعنة الله عليه.

ففى هاتين الرسالتين وأمثالهما يأتى الغموض متعمدًا، ولا يكون المرسل فيها جاهلا بالمحتوى الدلالى للفظ وما يحمله من دلالات، بل إنه يكون واعيا لما يقول، وعارفا بالأبعاد الدلالية للرسالة المبلغة.

ويبدو هذا الأمر جليا فى التراكيب التى يؤتى فيها بلفظ أو أكثر، ذى معنيين أو دلالتين: دلالة مقصودة، وأخرى غير مقصودة. ويظهر ذلك أيضًا فى التراكيب التى تبنى على الإلغاز اللغوى[(١)]، والتى تبين وعى المرسل بمدلول اللفظ ومحتواه، كما أنها تكشف عما لديه من ثقافة معجمية، ويتضح هذا فيما أورده الحريرى فى لغز لغوى، جاء فيه: «قال: ما تقول فيمن توضأ، ثم لمس ظهر نعله؟ قال: انتقض وضوءُه بفعله»[(٢)].

والغموض - هنا - يكمن فى لفظ «النعل»، إذ إن فيه دلالتين: الحذاء، وهى غير مقصودة، والزوجة، وهى الدلالة المقصودة.

وقد يحدث الغموض نتيجة عدم الوعى بدلالات الألفاظ أو عدم المعرفة الكافية بالبنية النحوية للتركيب[(٣)]. وقد يكون الغموض ناتجا عن الحذف المخل الذى

---

(١) يمثل ذلك ما أورده الحريرى فى المقامة الثانية والثلاثين «الطيبية». حيث أورد مائة مسألة فقهية تعتمد كلها على الإلغاز اللغوى.
انظر: الشريشى: شرح مقامات الحريرى البصرى.
إشراف وتصحيح: محمد عبد المنعم خفاجى. المكتبة الثقافية، بيروت - لبنان. (١٣٧٢هـ - ١٩٥٢م) جـ ٤. ص ١٤٠ - ١٦٩.

(٢) السابق جـ ٤ ص ١٤٤.

(٣) من ذلك ما جاء فى امتحان نهاية العام الدراسى (مايو ١٩٩٠) بكلية التربية جامعة حلوان، فى مادة «طرق التدريس» للفرقة الثالثة، فى «ثانيًا»: «ضع علامة (✓) أمام العبارة الصحيحة، وعلامة (✗) أمام العبارة الخاطئة، مع تصحيح العبارة الخطأ على نفس الورقة، وأرفق ورقة الأسئلة بكراسة الإجابة، ولا تستخدم أدوات النفى».

يُحدث لبسا فى الفهم[١]. وقد يكون مصدر الغموض الاستخدام الخاطئ لحرف الجر، بحيث ينتج عنه إساءة فهم الرسالة الموجهة[٢].

ويبدو الغموض كذلك فى التراكيب النحوية التى تختلف فيها دلالة الحرف من سياق إلى آخر، نحو قولنا: أكلت السمكة حتى رأسها، فيكون الرأس مأكولا، إن كانت (حتى) بمعنى (مع)، ويكون غير مأكول إن كانت بمعنى (إلى)، وإنما يكون الأكل قد انتهى إلى الرأس.

= ودون التعرض للصياغة، نقول: إن النهى فى قوله «لا تستخدم أدوات النفى» أحدث غموضا فى السياق، من جهة أنه يعنى عدم جواز استخدام أدوات النفى فى سياق تصحيح العبارة، وليس هذا هو المراد، وإنما المراد ألا يُكتفى بذكر «لا» أمام العبارة الخاطئة، بل يجب تصحيح تلك العبارة، وعلى ذلك فإنه يجوز استخدام أدوات النفى عند التصحيح، وبستقيم محتوى الرسالة لو قيل «. . ولا تكتف باستخدام أداة النفى (لا)» .

(١) أ - يمثل ذلك ما ورد فى صحيفة الأهرام القاهرية بتاريخ ٩/ ٥/ ١٩٩٠ حيث جاء فيها:

«رئيس وزراء أيسلندا يزور مصنع ١٠٠ الحربى:

مصر تنتج المدافع الثقيلة بأنواعها محليا» .

فالتركيب الأول منفصل تمامًا عن التركيب الثانى، وجاءت النقطتان (:) دونما دلالة تذكر، على الرغم من أن النقطتين لهما دلالة مهمة ومحددة فى التراكيب الصحفية؛ فهما تأتيان بدلا من الأفعال: قال، أو صرح، أو ذكر .

ب - ويبدو الغموض أيضًا فيما ورد فى صحيفة الوفد القاهرية بتاريخ ١/ ٦/ ١٩٨٩، إذ جاء فيها:

«العاهل الأردنى ينتقد وسائل الإعلام لاهتمامها بتحركاته، ويشعر بالملل من رؤية صوره فى الصحف والتليفزيون» .

ومجىء هذا العنوان على هذا النمط يوحى بغير ما هو مراد ؛ ذلك أنه قد سقط - دون وعى - كلمة «تكرار» قبل كلمة «رؤية»، كما يوضح ذلك ما جاء فى تفصيلات، والمعنى أنه يشعر بالملل من تكرار رؤية صوره . وليس من مجرد رؤية صوره .

(٢) من ذلك ما جاء فى صحيفة الأهرام القاهرية بتاريخ ٢٦/ ٥/ ١٩٩٠، إذ ورد فيها:

«تعليمات للنائب العام بسرعة تنفيذ قرار المحكمة . . . .» .

فاللام فى «للنائب» تثير لبسا، ومصدر هذا اللبس أن حرف الجر «اللام» يمكن أن يكون بمعنى «إلى»، وعلى ذلك يكون التساؤل: هل التعليمات موجهة للنائب العام . . .؟ أم هى صادرة منه؟ ولو قيل تعليمات من النائب العام . . . لفهمت الرسالة على وجهها المراد؛ إذ إن التعليمات من النائب العام وليست إليه .

كما يتجلى الغموض فى التراكيب التى تعتمد على التورية، ومن ذلك قول سراج الدين الوراق (٦١٥ - ٦٩٥هـ) فى شخص اسمه عرفات:

أطنبوا فى عرفات وَغَدَوْا
يتعاطَوْنَ له حُسْنَ الصِّفَاتْ
ثم قالوا لى: هل وافقتنا؟
قلتُ: عندى وَقْفَةٌ فى عرفاتْ

وقول ابن نُباتة المصرى (٦٨٦ - ٧٦٨هـ):

والنهرُ فيه كمِبْرَدٍ
فلأجل ذا يجلو الصَّدَا[١]

كذلك فإن عدم الإدراك التام لدلالات بعض الكلمات أو الحروف قد يوهم بأن هناك تكرارا أو حشوا، ومن ذلك ما يروى من أن الكندى الفيلسوف، وهو يعقوب ابن إسحق، (ت نحو ٢٦٠هـ) قال لأبى العباس ثعلب (٢٠٠ - ٢٩١هـ): «إنى لأجد فى كلام العرب حشوا! فقال له أبو العباس: فى أى موضع وجدت ذلك؟ فقال: أجد العرب يقولون: عبد الله قائم، ثم يقولون: إن عبد الله قائم، ثم يقولون إن عبد الله لقائم، فالألفاظ متكررة والمعنى واحد. فقال أبو العباس: بل المعانى مختلفة لاختلاف الألفاظ، فقولهم: عبد الله قائم، إخبار عن قيامه = وقولهم: إن عبد الله قائم، جواب عن سؤال سائل = وقولهم: إن عبد الله لقائم، جواب عن إنكار منكر قيامه، فقد تكررت الألفاظ لتكرر المعانى»[٢].

ثمة فروق دقيقة بين التراكيب المتشابهة، وهناك ظلال من الإيحاءات والدلالات قد تخفى على البعض، ومنه أن بعضهم قد لا يرى فرقا بين قولنا: (زيد المنطلق)

---

(١) (الصدا)، والاصل: الصدأ: وسخ الجديد . و(الصدى): العطش، وهو المعنى المراد .

(٢) عبد القاهر الجرجانى: دلال الإعجاز .
تعليق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدنى بالقاهرة - دار المدنى بجدة، ط ٣، (١٤١٣هـ - ١٩٩٢م) . ص ٣١٥ .

وقولنا (المنطلق زيد)، والثابت أن بينهما اختلافا، فقولنا: (زيد المنطلق) يدل على أن انطلاقا «قد كان، وعرف السامع كونه، إلا أنه لم يعلم أمِنْ زيد كان أم من عمرو؟ فإذا قلت: (زيد المنطلق)، أزلت عنه الشك وجعلته يقطع بأنه كان من زيد... وليس كذلك إذا قدَّمت (المنطلق) فقلت: (المنطلق زيد)، بل يكون المعنى حينئذ على أنك رأيت إنسانا ينطلق بالبعد منك، فلم تُثْبِتْهُ، ولم تعلم أزيدٌ هو أم عمروٌ، فقال لك صاحبك: (المنطلق زيد)، أى هذا الشخص الذى تراه من بُعْد هو زيد»[(١)].

ويتصل بهذا ما يروى من أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقُولَنَّ أحدكم خَبُثَتْ نفسى، ولكن ليقل لَقِسَتْ نفسى»[(٢)]. واللَّقَس: الحرص والشَّرَه وخُبْث النفْس. والخُبْث: ثِقل النفس. فقوله «لقست نفسى وخبثت، معناهما واحد. وإنما كره من ذلك لفظ الخبث وبشاعة الاسم، وعلمهم الأدب فى المنطق وأرشدهم إلى استعمال الحسن وهجران القبيح منه»[(٣)].

وإذا كان الغموض يمكن أن يصيب اللغة، فإن اللغة قد تعجز أحيانًا عن الإفصاح والتحديد الدقيق إلا اعتمادا على بعض الأشياء، أو أن تحيل المتلقى إلى ما يختزنه من خبرات ومعارف، فلو شئنا أن نعرِّف اللون البرتقالى مثلا، فأمامنا تعريفان:

أولهما: اللون البرتقالى: هو لون يتم من مزج لونين: الأحمر والأصفر.

وثانيهما: اللون البرتقالى: هو بلون البرتقال.

---

(١) السابق، ص ١٨٦ .

(٢) البخارى: صحيح البخارى .

توثيق وضبط: د . طه عبد الرءوف سعد .

دار الحرم للتراث، القاهرة، (١٤١٩هـ - ١٩٩٨م): ٤/ ١٢٠ .

(٣) بكر بن عبد الله أبو زيد: معجم المناهى اللفظية .

دار العاصمة للنشر والتوزيع بالرياض، السعودية، ط ٣، (١٤١٧هـ - ١٩٩٦م) . ص ٢٤٧ .

وكلا التعريفين يعتمد على الخبرة الحياتية والمسبقة عن الأشياء، فالتعريف الأول يفترض معرفتنا باللونين: الأحمر والأصفر، والتعريف الثانى ينبنى على وعينا بلون البرتقال، فضلا عن البرتقال ذاته، ويشبه ذلك أن نعرِّف اللون الأحمر فنقول: إنه بلون الدم.

وكما يمكن أن يعترى اللغةَ الغموضُ، وإضافة إلى عجز اللغة أحيانا عن التحديد الدقيق، فإن ثمة ظاهرة تتعلق بالبنية التركيبية للجملة، ونعنى بها التعقيد اللفظى الذى يؤدى إلى صعوبة وصول الرسالة المبلغة إلى مستقبلها؛ فاختلاف ترتيب عناصر الجملة قد يؤدى إلى التعقيد الذى قد ينجم عنه الغموض، على الرغم من أن خبرتنا المسبقة عن العالم ومعرفتنا بالأشياء قد تساعدنا على فهم الرسالة المبلغة.

ويبدو ذلك فى التركيبين التاليين المختلفين فى الترتيب:

- An old man came in who suffered with asthma .
- An old man who suffered with asthma came in.

فنلاحظ أن الجملتين ليستا على درجة واحدة من القبول Acceptability، فإذا كانت الجملة الثانية مقبولة لتوفر الدقة النحوية والترتيب الصحيح فى عناصرها، فإن الجملة الأولى غير مقبولة، إذ إن ضمير الوصل Who قد فُصل عن الفاعل An old man بفعل وحرف جر، مما أحدث نوعًا من التعقيد فى تركيبها.

ويتضح سوء الترتيب أيضًا فى التركيبين التاليين:

- An old man with asthma came in .
- An old man came in with asthma .

فالجملة الأولى أكثر دقة وصحة Correctness من نظيرتها الثانية، ويعود ذلك إلى انتظام ترتيب عناصر الأولى ، وافتقاد هذا الأمر فى الثانية، حيث بعدت العبارة الوصفية With asthma عن الموصوف An old man.

ويختلف الأمر فى التركيبين التاليين:

- I called most of the girls up .

- I called up most of the girls .

إذ إنهما على درجة واحدة من القبول، ويرجع هذا إلى أن المفعول به اسم ظاهر، وليس ضميراً. ونلاحظ أيضًا أن المفعول به قد وقع - فى التركيب الأول - بين الفعل Called وحرف الجر up.

لكن الجملة:

- I called up the girls who lived there .

أكثر قبولا من الجملة:

- I called the girls who lived there up .

وذلك لأنه قد فُصل بين الفعل وحرف الجر بمفعول به the girls وجملة وصفية تابعة Adjective Subordinate Clause وهى جملة: Who lived there . فالعامل الحاسم فى تحديد درجة الصحة والقبول هو البنية التركيبية Syntactic Structure للجملة.

وقد يؤدى كثرة استخدام أدوات الربط إلى إطالة الجملة؛ مما ينتج عنه فى النهاية تعقيد Complexity المعنى، ومثال ذلك التركيبان:

- The dog chased the cat that killed the rat that ate the corn .

- The rat the cat the dog chased killed ate the corn .

فالجملتان فيهما شىء من التعقيد، ولكن الجملة الثانية أكثر تعقيدًا من الأولى؛ ولذا فإن عملية التبليغ فيها تبدو أكثر صعوبة[1] ويعود ذلك إلى ما يلى:

(1) J. P. Thorne: "Generative Grammar and stylisic Analysis", edited by John Lyons. Penguin Books, 1972. p. 187 .

(أ) إسقاط أدوات الربط.

(ب) توالى الأفعال والفواعل.

(جـ) أن ثمة ازدواجية فى وظيفة الأسماء المتوالية، فكل منها يعد فاعلا لفعل ومفعولا لفعل آخر فى آن واحد.

وهناك أمر آخر يضاف إلى ما سبق، وهو أن اختلاف المجال الدلالى للألفاظ فى البيئات اللغوية المختلفة قد يؤدى إلى لبس فى المعنى، وذلك إذا كان ثمة تعامل لغوى لأفراد ينتمون إلى هذه البيئات اللغوية المتباينة، فكلمة «ناصح» ـ مثلا ـ تعنى فى العامية المصرية: الفطن، الذكى، بينما تعنى فى عامية أهل الشام: الشخص السمين. وكلمة «الحَّام» فى عامية أهل مصر تجىء بمعنى: القائم بلحام المعادن، بينما هى عند أهل الشام تدل على القصَّاب، أى بائع اللحم.

ولو سمع عُمانى ـ مثلا ـ قاهريا ينطق كلمة «الفقر» ـ بتحويل القاف إلى همزة ـ لظن أنه يعنى «الفأر»، ذلك الحيوان القارض، إذ إن القاف ـ عند أهل عُمان ـ لا تتحول إلى همزة، وإنما تُنطق فى الكلام الدارج قافا.

ولا يقتصر اختلاف المجال الدلالى للألفاظ على البيئات اللغوية المختلفة، إذ إننا نجد ذلك أيضًا فى البيئة اللغوية الواحدة، فكلمة «ناصح» بما لها من دلالة فى عامية أهل مصر، فإنها فى اللغة الفصحى ذات دلالات مختلفة، منها مثلا أنها تعنى مقدم النصيحة، فتكون اسم فاعل من نصح ينصح، وكذلك يقال رجل ناصح، أى: خائط.

واختلاف الدلالة بين المستوى الفصيح ونظيره العامى يتسع ويتطور باتساع الحياة وتطورها، فكلمة «الجواز» ـ مثلا ـ تعنى فى العامية المصرية: الزواج، وهى مقلوبة عنه، وتعنى أيضًا وثيقة السفر Passport، بينما فى الفصحى تعنى: صك المسافر، أى أن دلالة الكلمة فى الفصحى مرتبطة ارتباطا وثيقا بالدلالة الثانية للكلمة فى العامية، ولا تتصل بحال من الأحوال بالدلالة الأولى.

كذلك فإن كلمة «عبيط» تعنى فى الفصحى اللحم الطرى، أو اللحم السليم من الآفات، بينما تشير دلالتها فى العامية إلى الأبله، وهناك أيضًا كلمة «جمهورى» التى تعنى فى الفصحى العصير المطبوخ الحلال، أو هى اسم شراب يُسكر، بينما تتبدى دلالتها المعاصرة فى قولنا ـ مثلا ـ: الحزب الجمهورى، النظام الجمهورى (فى مقابل النظام الملكى).

من هذا نرى أن اللفظ الواحد قد تختلف دلالته من بيئة لغوية إلى أخرى، بل إن هذا الاختلاف الدلالى للفظ الواحد قد يكون فى إطار البيئة اللغوية الواحدة.

ويضاف إلى ما سبق أن اكتساب الطفل اللغة يتم استنادًا إلى ما يسمعه من لغة منطوقة من قِبل الآخرين ممن يعيش بينهم، ويتم هذا عن طريق تمييز الوحدات الصوتية وإدراك محتواها وفهم دلالاتها.

إن الدلالات الصحيحة لا تتحقق فحسب استنادًا إلى الصحة النحوية Grammatical Correctness (أو الدقة النحوية Grammatical Accurancy)، فقد تكون الجملة صحيحة نحويا، ولكنها لا تنتج دلالات صحيحة، فنحن يمكننا أن نقول مثلا: افترست القطةُ الأسدَ. . ، وقرأ الكلبُ الرسالة. . ، وابتلع القلمُ الشجرةَ، فهذه الجُمل وأمثالها ـ مما يقصد بها حقيقة اللفظ ومدلوله المباشر ولا تقوم على المجاز ـ لا تنبنى على المنطق، وعلى الرغم من أن هذه التراكيب تتوافر فيها الصحة النحوية، إلا أنها فاسدة منطقيا، لأنها لا تتفق مع التصور العقلى والمنطقى، وتتنافى وطبائع المخلوقات والأشياء.

والفساد المنطقى للجملة، إضافة إلى أنه يؤدى إلى فشل عملية التبليغ Communication، فإنه قد يدل على أن هناك فسادًا فى عقل مرسلها. ومعنى ذلك أنه إذا كانت الأخطاء النحوية تدل على فساد فى التذوق، فإن الفساد المنطقى قد يدل على أن هناك خللا فى التفكير.

وفى مقابل ذلك فإن عدم تحقق الصحة النحوية مع تحقق الصحة المنطقية

Logical Correctness قد يؤدى إلى فهم الرسالة على وجهها المراد، فيمكننا، مثلا، أن نقول: صلى الإمام «بالمصلون»، فعلى الرغم من أن هذا التركيب يفتقر إلى الصحة النحوية، إلا أن الاستدلال العقلى والخبرات السابقة المتصلة بالموضوع تجعلنا نفهم الرسالة المبلغة على وجهها الصحيح. ويشبه ذلك أن يقول أحدهم: إن «تسعى» فى الخير، «تنال» ثواب ربك، دون جزم فى فعلى الشرط والجواب، إذ نستطيع أن نتبين المراد من الرسالة، على الرغم من خلوها من عنصر الصحة النحوية، وذلك لتوفر المنطق فى الدلالات المنتجة، مما أفرز لنا دلالات صحيحة.

وإذا كان النحو يضع حدوداً صارمة وأصولاً وقواعد، بهدف الحفاظ على سلامة العبارة وصحة الأداء اللغوى، فإن الإعراب يجىء ليوضح وظيفة الكلمة فى الجملة وعلاقتها بغيرها من الألفاظ فى السياق، حتى يصل المعنى إلى المرسَل إليه على وجهه الصحيح. ويعنى ذلك أن ثمة علاقة وثيقة بين الإعراب والمعنى، وعلة وجود الإعراب والاحتياج إليه أن «الأسماء لما كانت تعتورها المعانى، فتكون فاعله، ومفعولة، ومضافا إليها، ولم تكن فى صورها وأبنيتها أدلة على هذه المعانى بل كانت مشتركة، جعلت حركات الإعراب فيها تنبئ عن هذه المعانى»(١).

وثمة إجماع بين النحاة على أهمية الإعراب فى بيان المعنى، إلا أن أحدهم، وهو قطرب (ت ٢٠٦هـ) قد خرج عن هذا الإجماع، إذ إنه لا يرى علاقة بين الإعراب والمعنى، «فلو كان الإعراب إنما دخل الكلام للفرق بين المعانى، لوجب أن يكون لكل معنى إعراب يدل عليه لا يزول إلا بزواله»(٢).

ويورد قطرب ـ توضيحا لرأيه ـ جملا تتفق فى الإعراب وتختلف فى المعنى، مثل:

إن زيدا أخوك. ولعل زيدا أخوك. وكأن زيدا أخوك.

---

(١) الزجاجى: الإيضاح فى علل النحو.
تحقيق د. مازن المبارك. دار النفائس. بيروت. لبنان. ط ٥، (١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م). ص٦٩.

(٢) السابق ص ٧٠.

كما يجيء بجمل تختلف فى الإعراب وتتفق فى المعنى، مثل: ما زيد قائمًا. وما زيد قائم. وما رأيته منذ يومين، ومنذ يومان، أى بينى وبين لقائه يومان. ومدة فراقه يومان[1].

ولا نتفق مع قطرب فيما أورده من اتفاق فى إعراب جمل النوع الأول واختلافها فى المعنى. إنما الصحيح أنها تختلف فى الإعراب وتختلف فى المعنى، وذلك باختلاف وظيفة الحرف الناسخ فى كل جملة، الذى يؤدى إلى تباين المعنى. فعلى الرغم من أن هذه الجمل - وأشباهها - تتفق من حيث تصنيفها العام، إذ هى جمل اسمية منسوخة بإن أو إحدى أخواتها، إلا أن كل جملة تختلف عن نظيرتها تبعا لاختلاف الحرف الناسخ.

أما النوع الثانى الذى أورده، وهو الجمل التى تختلف فى الإعراب وتتفق فى المعنى، فاختلاف الإعراب فيها ناتج عن اختلاف وظيفة الحرف فى الجملة، ففى الجملتين: ما زيد قائمًا، وما زيد قائم، إنما يعود الاختلاف فى الإعراب إلى إعمال «ما» أو إهمالها، وكذلك الجملتان: ما رأيته منذ يومين، ومنذ يومان، اللتان تختلفان فى الإعراب باختلاف وظيفة «منذ»، أى بمعاملته على أنه حرف أو على أنه اسم.

ونضيف إلى ما سبق أننا قد نجد اتفاقا فى المعنى العام بين عدد من الجمل، على الرغم من اختلافها فى الإعراب، ويتضح الأمر بجلاء فى التراكيب التالية:

- كان زيد ضاحكًا.
- حضر زيد ضاحكًا.
- وجدت زيدًا ضاحكًا.

فعلى الرغم من تشابه هذه التراكيب فى المعنى - ولا نقول تطابقها التام - من

---

(١) إذا ورد بعد (مُذ)، و (مُنذ) اسم مجرور، فكل منهما حرف جر. أما إذا كان ما بعدها اسمًا مرفوعًا، فكل منهما ظرف، والاسم الواقع بعده فاعل لفعل محذوف تقديره (كان). وقيل إن (مُذ) فى قولك (مذ يومان) تحل محل المبتدأ، و (يومان): خبر. وذكر بعضهم أن (مذ) أصلها (منذ).

obeikandl.com

حيث إن المعنى فيها يشير إلى «كون»، أو «حضور»، أو «وجود» زيد فى حالة معينة إلا أن الإعراب يختلف فيها على النحو التالى:

- التركيب الأول : فعل ماض (ناقص) + اسمه + خبر.
- التركيب الثانى: فعل ماض (تام) + فاعل + حال.
- التركيب الثالث: فعل ماض (ينصب مفعولين) + فاعل + مفعول أول + مفعول ثان.

وإذا كنا ننفى عن التراكيب السابقة التماثل التام فى المعنى، فإن هذا يعود ـ فى المقام الأول ـ إلى اختلافها فى الإعراب، مما يؤكد أهمية الإعراب فى إيصال المعنى، وفى تغييره، إلى الحد الذى يجعل أولهما قرينا للآخر ودالا عليه.

❁ ❁ ❁

obeikandl.com

المبحث الثاني:

التنغيم والتغير الصوتي

من السهل على المرء أن يقوم بتحويل اللغة المكتوبة المقروءة إلى لغة منطوقة مسموعة، والثابت أن العكس ليس صحيحًا؛ إذ إنه يصعب - بل يستحيل أحيانًا - تحويل بعض التراكيب المنطوقة إلى أخرى مكتوبة، إلا أن يُستعان فى ذلك ببعض التراكيب الإيضاحية، أو الوصفية، أو الاعتراضية، تتميما للمعنى بغية النقل الحرفى الكامل لما هو منطوق، وتحويله إلى تراكيب لغوية مكتوبة. ويعود ذلك - فى المقام الأول - إلى التنغيم Intonation، أو النبر Stress، أو السكتات والوقفات Pauses، أو الهمس Whispers، كما يعود إلى ما يصاحب اللغة المنطوقة من حركات إشارية باليدين أو بالعينين، أو من تعبيرات على الوجه.

فجملة «ستقوم أنت بهذا العمل» جملة خبرية، بالنظر إلى سياقها التركيبى، ولكننا حين نسمعها بطريقة فيها الصرامة والحزم والضغط على الحروف والكلمات، بحيث يبدو فيها النبر واضحا... نستطيع أن نقول إنها أمر، وليست خبرا. ولو قال طفل لأمه: ! No milk بتنغيم معين ينبئ عن سؤاله عن وجود اللبن، فإنه سيختلف المعنى حين تقال الجملة ذاتها بطريقة مخالفة فيها معنى الإخبار عن عدم وجود اللبن، كأن تقولها أم - مثلا - لابنها حين يسألها عن وجود اللبن؛ ففى الحالة الأولى صارت جملة: !No milk مساوية فى المعنى لجملة: Don't you have milk? التى تتضمن معنى: I want milk، وفى الحالة الثانية كان معناها: No milk.

ويعنى ذلك أن التنغيم يؤدى وظيفة نحوية فى السياق التركيبى للجملة، ويبدو ذلك واضحا فى التراكيب الاستفهامية، ونظائرها الشرطية، وفى الإغراء والتحذير، وكذلك فى النفى. ولا تقتصر أهمية التنغيم على دوره فى الفصحى، بل إن له

الأهمية ذاتها فى العامية ؛ فالتعبير «يا أخى..» من الممكن أن يحمل الدلالات التالية:

- المودة والإخاء .
- العتاب واللوم .
- الخلو من أى مضمون دلالى ، وذلك حين يكون لغوا فى حشو الكلام .
- . . . . . .

ويعتمد تحديد الدلالة المقصودة - بالإضافة إلى السياق والموقف - على التنغيم الذى يؤدى دورًا مهما فى إكساب التراكيب الخبرية بعض المضامين الدلالية التى ما كانت لها فى الأصل، فالجملة الخبرية «فى الحديقة لص» يمكن أن تتحول إلى صورة من صور التحذير إذا اعتمدت على التنغيم التحذيرى، ونعنى به أن يأتى التنغيم فى السياق دالا على التحذير. ويمكننا أن نقول إنه إلى جانب ما نسميه التنغيم التحذيرى، هناك التنغيم الشرطى ، والتنغيم الاستفهامى...

ويبدو التنغيم واضحًا فى التراكيب التى تعتمد على الحذف، وهى نوعان:

النوع الأول: تراكيب لا تحتاج إلى تنغيم لإبراز ما هو محذوف، كما فى التراكيب الاسمية التى يحذف فيها خبر «لا» النافية للجنس، مثل: «لا شك»، و «لا ريب» و «لا جدال»... وكذلك فى خبر «لولا» الشرطية التى يحذف خبرها.

النوع الثانى: تراكيب تحتاج إلى تنغيم لإبراز ما هو محذوف، وهى التراكيب التى يجوز فيها الحذف والذكر، كما فى حذف جملة جواب الشرط فى التركيب الشرطى، كما فى قوله تعالى: ﴿ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ ﴾[1]، أى فافعل[2]. ويمثل النوع الثانى أيضًا حذف همزة

---

(١) سورة الأنعام الآية: ٣٥.

(٢) انظر: معانى القرآن للفراء.

تحقيق: محمد على النجار وآخرين. الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة جـ ١. ص ٣٣١، ٣٣٢.

الاستفهام كأن يقول حبيب لحبيبته: «تلومينى على خفقات قلبى»، فيصح أن يكون التقدير: «أتلومينى....» ويكون استفهاما، ويصح ألا يكون ثمة محذوف، ويصبح التركيب خبرا تقديره: أنت تلومينى. والفيصل فى تحديد كون هذا التركيب استفهاما أم خبرا هو التنغيم.

ويعترى بعض الأصوات تغيرٌ يُخرج الصوت من صورته الصحيحة إلى صورة أخرى مخالفة. ولما كانت الكلمة تتكون من أصوات، ودلالتها الأصلية إنما تتحقق بتركب تلك الأصوات فى نظام وترتيب معينين، فإنَّ تغير صوت معين، وتحوله إلى صوت آخر، لسبب ما، يشبه عملية استبدال صوت بنظير له فى الكلمة.

والحرف الهجائى هو أصغر وحدة صوتية Phoneme فى الكلمة. وهذه الوحدة الصوتية إنما ينجرّ عن استبدال وحدة صوتية أخرى بها تغيّر فى المعنى؛ فالفعل «مال» إذا استبدلت بميمه وحدة صوتية أخرى، ولتكن «القاف»، ظفرنا بفعل آخر، وهو «قال»، مغاير تمامًا للفعل الأول، وتحول صوت القاف فى كلمة «قال» إلى «كاف» يتبعه تغيّر فى دلالة الكلمة، وشبيه بذلك «الطاء» فى «بطر»، التى إذا حولت إلى «تاء» صارت الكلمة «بتر». وبدهى أن عدد الوحدات الصوتية (الفونامات) فى أية لغة محدود، كما أن هذه الوحدات تختلف من لغة إلى أخرى.

وثمة أمران ينبغى الإشارة إليهما، **أولهما**: أن هذا التغير يبدو بصورة واضحة فى حروف الإطباق، وهى: الصاد، والضاد، والطاء، والظاء. فنطق هذه الأحرف دون إطباق يحولها بترتيبها إلى: سين، ودال، وتاء، وذال[1] (أو زاى). **وثانيهما**: أن هذا التغير إنما يتحدد فقط فى مجال الخطاب دون مجال الكتابة، ويظهر جليا فى هذا المجال الخطابى عند الإناث، أكثر من ظهوره عند الذكور، كما أنه يتبدى فى نطق سيدات المجتمع الراقى.

وبنية الكلمة - سواء أكانت اسما أم فعلا أم حرفا - إنما تتكون من

(١) انظر: د. محمود فهمى حجازى: مدخل إلى علم اللغة.
دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، ط ٢ (١٩٧٨ م). ص ٣٦.

انتظام الحروف فى ترتيب معين، وهذه الحروف تسمى «الحروف الهجائية» Letters of Alphabet، كما تسمى أيضًا «حروف المبانى»، إضافة إلى أنه يطلق عليها «حروف المعجم».

وعدد الحروف الهجائية تسعة وعشرون حرفا، وهى بحسب مخارجها:

الهمزة، والألف، والهاء، والعين، والحاء، والغين، والخاء، والقاف، والكاف، والجيم، والشين، والياء، والضاد، واللام، والراء، والنون، والطاء، والدال، والتاء، والصاد، والزاى، والسين، والظاء، والذال، والثاء، والفاء، والباء، والميم، والواو.

وترجع تسمية حروف المعجم بهذا الاسم إلى «أن الحرف حد منقطع الصوت وغايته وطرفه، كحرف الجبل ونحوه. ويجوز أن تكون سُميت حروفا لأنها جهات للكلم ونواح كحروف الشىء وجهاته»[1]. وهذه الحروف مبنية على الوقف، أى أن الناطق بها يمكن أن يقف على كل حرف منها بالسكون، فيقول: ألفْ، باءْ، تاءْ... وهذه الحروف تذكر وتؤنث.

وقد رتب الخليل بن أحمد (ت ١٧٥هـ) الحروف العربية فى كتابه «العين» ترتيبًا مغايرًا، إذ إنه بدأ بالعين باعتبار أنها أقصى الحروف الحلقية، وهى: العين، والهاء، والحاء، والخاء، والغين، والهمزة. وقد جعل الخليل ترتيب الحروف حسب مخرجها من الحلق، وترتيبها عنده كما يلى:

العين، والحاء، والهاء، والخاء، والغين، والقاف، والكاف، والجيم، والشين، والضاد، والصاد، والسين، والزاى، والطاء، والدال، والتاء، والظاء، والذال، والثاء، والراء، واللام، والنون، والفاء، والباء، والميم، والياء، والواو، والألف.

أما سيبويه (ت ١٨٠هـ) فقد رتب تلك الحروف ترتيبًا مختلفًا، فهى عنده:

---

(١) ابن جنى: سر صناعة الإعراب.
تحقيق: مصطفى السقا وآخرين. مطبعة الحلبى بمصر، ط١، (١٣٧٤هـ - ١٩٥٤م)، جـ١، ص١٦.

الهمزة، والهاء، والعين، والحاء، والخاء، والغين، والقاف، والكاف، والضاد، والجيم، والشين، واللام، والراء، والنون، والطاء، والدال، والتاء، والصاد، والزاى، والسين، والظاء، والذال، والثاء، والفاء، والباء، والميم، والياء، والألف، والواو.

والترتيب الشائع للحروف الهجائية يبدأ بالألف وينتهى بالياء، ويرد هكذا: ألف، باء، تاء، ثاء.... وقد شاع فى معاهد العلم أن ثمة حرفا يجىء بين «الواو» و «الياء» هو «لام ألف»، وكأن هذا الحرف مركب من حرفين، هما: «اللام»، و «الألف». واللافت للانتباه ـ هنا ـ أنه لا ترد أية إشارة ـ من قريب أو من بعيد ـ إلى وجود الهمزة ضمن هذه الحروف الهجائية.

وينبغى ـ بدايةً ـ أن نشير إلى أمر مهم، وهو أن أول الحروف الهجائية هو الهمزة، أما ما شاع واشتهر على أنه «لام ألف» فهو خطأ شائع؛ إذ إن المراد به هو الألف اللينة التى تأتى ساكنة دائمًا، ويكون ما قبلها مفتوحا. وهذه الألف لا تجىء مطلقا فى أول الكلمة، وإنما قد ترد فى وسط الكلمة، مثل: قال، ومال، وباع، وقد تكون فى آخرها، مثل: دعا، ونما، وعصا، وخلا، وعدا، ولا. وقد تنقلب هذه الألف ياء، كما فى: سعىء وموسى، وحتى.

ويعود سبب تركيب هذه الألف مع اللام إلى أنه لما كان من العسير نطق هذه الألف اللينة بمفردها، لأنها حرف ساكن، وبدهى أنه لا يمكن البدء بالساكن، فقد ركبت هذه الألف مع اللام، حتى يمكن النطق بها. ويعنى ذلك أن هذا الحرف هو الألف اللينة مركبة مع اللام، وعلى ذلك فصحة نطق هذا الحرف «لا» بوزن «ما»[1].

وترجع علة اختيار اللام دون غيرها من الحروف الهجائية لتركيبها مع الألف، توصلا إلى النطق بهذه الألف، إلى أن العرب لما كانوا قد توصلوا إلى نطق اللام الساكنة فى «الرجل» و «الغلام» بألف الوصل، فإنهم قد عمدوا إلى اختيار اللام حتى

(١) انظر: سر صناعة الإعراب جـ ١. ص ٤٩ .

يمكن نطق هذه الألف الساكنة، وذلك ضرب من المعاوضة بين الحرفين[١]، أى أن ذلك يعد نوعا من التماثل فى تبادل الحروف. وقد لا يكون ثمة مغزى بعينه فى اختيار اللام دون غيرها من الحروف، وإنما كان المراد الإتيان بأى حرف متحرك للتوصل إلى نطق الحرف الساكن، وهو الألف، وكان ممكنًا أن يتركب الألف مع الباء، أو التاء، أو السين، أو غيرها من الحروف.

إذن يمكننا أن نقول إن هذه الألف الساكنة تختلف عن الهمزة المرسومة على الألف هكذا « أ »، فهذه الهمزة قد رسمت على الألف كى تستقيم صورتها، وللدلالة على أنها همزة قطع[٢].

واستنادًا إلى ما سبق يكون مجموع الحروف الهجائية - إضافة إلى الهمزة - تسعة وعشرين حرفا. وينبغى أن نشير إلى أن المبرد (ت ٢٨٥هـ) لم ير أن للهمزة صورة ثابتة، فعدد حروف التهجى عنده ثمانية وعشرون حرفا. وترجع علة عدم اعتداده بالهمزة إلى أنها تعتريها حالات خاصة، كالحذف، والتخفيف، وغيرهما. ونقول إن هذه الحالات لا تخرج هذا الحرف عن كونه حرفا أصليا من حروف المعجم؛ ذلك أن هناك حروفا أخر يصيبها شىء من التغير، مثل: اللام، والنون، والواو، ومع ذلك فإن صورتها ثابتة فى إطار حروف المعجم[٣].

وثمة أحرف أخر تلحق بهذه الحروف التسعة والعشرين، وهذه الأحرف الملحقة بالحروف الأساسية والمتفرعة عنها إما أن تكون ناتجة عن تغيير فى نطق حرف بعينه، وإما أن يكون نطقها واقعا بين حرفين من حروف المعجم.

وعدد هذه الأحرف الفرعية ستة أحرف، وهى:

١٠ - **النون الخفيفة**، أو النون الساكنة، ومخرجها من الخياشيم، نحو نون «مِنْك»، و «عَنْكَ»، وهى تختلف عن النون المتحركة فى أن المتحركة من حروف الفم،

(١) انظر: المرجع السابق جـ ١ . ص ٥٠ .
(٢) انظر: مدخل إلى علم اللغة . ص ٣٣ .
(٣) انظر: سر صناعة الإعراب جـ ١ . ص ٤٨ .

ويمكن تمييز النون الساكنة بإمساك الأنف حال النطق بها، إذ ستخرج تلك النون وبها اختلال(١).

٢ - الهمزة بَيْنَ بَيْنَ، أو الهمزة المخففة، كما في قولنا: زَارَ الليثُ، والأصل: «زَأَرَ»، وبيس، وأصلها «يئس»، وبَوُسَ، وهي في الأصل «بَؤُسَ». أي أن هذه الهمزة المخففة تأتي مفتوحة، ومكسورة، ومضمومة ولكنها لا تجيء في أول الكلام.

وتخفيف الهمزة لهجة أهل الحجاز. ويرجع تخفيفها إلى أن الهمزة مخرجها أقصى الحلق، فهي بذلك تعد أبعد الحروف، ومن هنا فثمة صعوبة لا تُنكر في نطقها.

ويضاف إلى هذا أنها من الأصوات المجهورة التي يمتنع النفَس أن يجري معها، ففيها إذن صفتا القوة والشدة.

٣ - الألف الممالة، أو ألف الإمالة، وهي «التي تجدها بين الألف والياء، نحو قولك في عالِم وخاتِم: عالِم وخاتِم»(٢).

٤ - ألف التفخيم، ويكون نطقها بين الألف والواو، «نحو قولهم: سُلام عليك، وقُام زيد. وعلى هذا كتبوا الصلوة والزكوة والحيوة بالواو، لأن الألف مالت نحو الواو»(٣).

٥ - الشين التي كالجيم، والشين حرف فيه «التفشي» ويعني انتشار الصوت في الفم حين النطق به، وصيرورة الشين كالجيم يقلل فيه هذا التفشي، وذلك كأن نقول: جَرِبَ، والأصل: شَرِبَ.

---

(١) انظر: المبرد: المقتضب.
تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، (١٣٨٦هـ) جـ١. ص٣٢٩.

(٢) سر صناعة الإعراب جـ ١. ص ٥٥.

(٣) المرجع السابق. ص ٥٦.

٦ - **الصاد التى كالزاى**، وهذان الحرفان يشتركان فى سمات بعينها، منها أنهما من أصوات الصفير التى تضم ثلاثة أحرف، هى: الصاد، والزاى، والسين، كما أنهما من الأصوات الرخوة التى يجرى الصوت معها. ويختلف الحرفان فى أن الصاد من حروف الإطباق، التى يرتفع اللسان حال النطق بها إلى الحلق، أما الزاى فهى من حروف الانفتاح، وهو ضد الإطباق. كما أن أولهما، وهو الصاد، من الحروف المهموسة، وهى عشرة أحرف: الهاء، والحاء، والخاء، والكاف، والشين، والسين، والتاء، والصاد، والثاء، والفاء. أما ثانيهما، وهو الزاى فمن الحروف المجهورة، وهى عكس المهموسة.

وهذه الأحرف الستة الفرعية تستحسن فى قراءة القرآن والشعر. وبإضافتها إلى الحروف التسعة والعشرين الأصلية يصير مجموع الحروف العربية خمسة وثلاثين حرفا.

وينبغى الإشارة إلى أن هناك حروفا أخر، وعددها ثمانية، لا تستحسن فى قراءة القرآن، ولا فى الشعر، وهى:

- الكاف التى بين الجيم والكاف.
- الجيم التى كالشين.
- الجيم التى كالكاف.
- الطاء التى كالتاء.
- الضاد الضعيفة.
- الصاد التى كالسين.
- الظاء التى كالثاء.
- الفاء التى كالباء[1].

---

(١) انظر: ابن سنان الخفاجى: سر الفصاحة.
شرح وتصحيح: عبد المتعال الصعيدى، مكتبة صبيح بالأزهر، القاهرة، (١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م). ص١٩.

obeikandi.com

وإذا أُضيفت هذه الحروف الثمانية إلى الحروف الخمسة والثلاثين صار مجموع الحروف العربية ثلاثة وأربعين حرفا[١]، منها تسعة وعشرون حرفا أصليا، وستة أحرف متفرعة عن الحروف الأصلية، وتستعمل فى القرآن وفصيح الكلام والشعر، وثمانية أحرف غير مستحسنة وغير مقبولة.

ويكمن تساؤل عن علة استحسان الأحرف الستة وقبولها فى قراءة القرآن وفى الشعر، وعدم ارتضاء الأحرف الثمانية أو استحسانها، بل واستنكارها، فى قراءة القرآن والشعر وفصيح الكلام.

وينجلى الأمر حين ندرك أن الأحرف الستة المرضى عنها لم تنحرف انحرافا حادًا عن صورتها الأصلية، فثمة صلة بين الحرف الأصلى ونظيره الفرعى. أما فى الأحرف الثمانية غير المرضى عنها فنلاحظ أن منها أصوات الإطباق الأربعة: الصاد، والضاد، والطاء، والظاء، التى وردت دون إطباق ؛ أى أنها قد تحولت من حالة الإطباق إلى الانفتاح. وقد أدى هذا التحول إلى انحراف الحرف عن صورته الأولى التى كان ينبغى أن يَرِدَ عليها. ونطق هذه الأحرف دون إطباق غير مقبول ولا مستحسن حتى فى لغة الخطاب العادى أو فى اللهجات العامية، بل إنه أمر مستنكر ومستهجن.

أما الأحرف الأربعة الأخرى، وهى: الكاف التى بين الجيم والكاف، والجيم التى كالكاف، والجيم التى كالشين، والفاء التى كالباء، فنلاحظ أن فيها انتهاكا واضحا لصورة الحرف الأصلى، بحيث إن تحول الحرف الأصلى إلى نظيره الفرعى يخرج الكلمة عن معناها المعجمى ودلالتها الحقيقية، ويكسبها دلالة أخرى مخالفة تمامًا للدلالة الأصلية، كما نقول فى «أجل» - وفيها ننطق الجيم كالكاف - «أكل»، وكما نقول فى «فَرِحَ» - وننطق الفاء كالباء - «بَرِحَ». فهذا يؤدى إلى فهم المعنى على غير وجهه المراد، مما يُفقد الرسالة المبلَّغة وظيفتها الأساسية وهى الإفهام.

❁ ❁ ❁

(١) عدد الحروف العربية كلها عند المبرد اثنان وأربعون حرفا، لأنه أخرج الهمزة من جملة حروف المعجم.

انظر: المقتضب جـ ١ . ص ٣٣١ .

obeikandl.com

المبحث الثالث:

الترادف

إذا كان الإنسان يهدف من خلال اللغة إلى الإبانة والإيضاح، ويسعى عن طريقها إلى إظهار مشاعره وانفعالاته، فإنه عندما يفعل ذلك يكون واعيا بمدلولات الألفاظ، وقد يدرك بدرجة ما الفروق الدلالية بين الألفاظ. ويستطيع المرء بأدائه اللغوى الذى تمرس عليه أن ينتج جملا عديدة لم يكن قد سمعها، أو قرأها، أو تعلمها من قبل، مما يؤدى إلى أن يستقر فى وعيه - أو لا وعيه - دلالة اللفظ، فيعرف أنه قد يكون ثمة ترادف - أو تقارب - بين لفظين، ولكن قد يختلف مدلول كل منهما عن الآخر. فقد يتقارب لفظا: «سيدة»، و «امرأة»، بل وقد يترادفان فى بعض السياقات، ولكننا لا نجد من يشك فيما يحمله لفظ «سيدة» من دلالات تشير إلى الوقار والاحترام، مما يخالف ما يومئ إليه لفظ «امرأة» من دلالات توحى بالأنوثة واكتمالها، تمامًا كما هو الحال فى لفظى: «سيد»، و «رجل»؛ إذ يدل أولهما على التبجيل والتعظيم، ويشير ثانيهما إلى دلالات ترتبط بالرجولة والمروءة[1].

ولذا فإن اللفظ الواحد يختلف مدلوله من سياق إلى آخر ؛ فالفعل «أحب» تختلف دلالاته إذا وُضع فى سياقات مختلفة، إذ يمكن القول: أحب وطنى، وأحب ابنتى، وأحب الصدق، وأحب الفاكهة، وأحب القراءة... وفى كل تركيب من التراكيب السابقة تختلف دلالة الفعل عن غيره من التراكيب.

---

(١) يلفت الانتباه - فى هذا المقام - شيوع لفظى: رجل، وامرأة، (وجمعهما) فى عناوين الروايات العربية، بعكس لفظى: سيد، وسيدة، (وجمعهما).

انظر: د. طه وادى، وحسن سرور: بيليوجرافيا الرواية العربية.

مجلة القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب. العدد ٨٨ أكتوبر ١٩٨٨، الصفحات من ٥٨ - ٦٦ .

obeikandi.com

ونحن أيضًا يمكننا أن نقول:

- السيارة أسرع من الدراجة.
- القطار أسرع من السيارة.
- الطائرة أسرع من القطار.
- القطار أسرع من الدراجة.
- الطائرة أسرع من السيارة.

ففى الجمل السابقة هناك مقارنات، وبدهى أن المقارنة بين شىء وآخر تتطلب وجود سمة مشتركة أو عنصر اتفاق - أو أكثر من سمة أو عنصر - بين الشيئين موضوع المقارنة، فنحن، مثلا، نستطيع أن نصف المرأة بأنها جميلة، وكذلك الوردة، ولكننا لا نستطيع أن نقول: إن المرأة أجمل من الوردة، أو إن الوردة أجمل من المرأة، على الرغم من أننا نصف كل منهما بالجمال، وهذا يرجع إلى أن مدلول الجمال عند المرأة يخالف نظيره فى الوردة. ويعنى ذلك أن دلالة الكلمة لا تتحدد إلا فى إطار سياقها. قد يكون هناك تحديد منفصل لها فى إطارها الذاتى الخاص، ولكن دلالتها النهائية لا تتحدد إلا فى إطار السياق الذى يحتويها، ولذلك نعتقد أنه «ليس من الصواب البحث عن معنى الكلمة المفردة فى سياق التركيب، يجب أن نعرف أن المعنى المفرد قد اعتراه شىء من التغيير بمجرد دخوله فى السياق»[1]. فلفظ «الإصلاح»، مثلا، تختلف مدلولاته إذا وُضع فى سياقات أو تراكيب مختلفة، فنحن نقول: الإصلاح الاقتصادى، وإصلاح الخطأ، وإصلاح الكرسى، والإصلاح بين المتخاصمين... كذلك فإن الفعل «أكل» من الممكن أن يكون بمعنى نهب أو سرق فى قولنا: أكل مال اليتيم.

---

(١) د. مهدى صالح السامرائى: المجاز فى البلاغة العربية.
دار الدعوة، حماة، سورية (١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م). ص ٢١٩.

ونحن فى إطار الوصف يمكننا أن نصف الطقس بأنه بارد، كما يمكننا أن نصف الحرب بأنها باردة، وهو تعبير مستحدث، وإذا كان هناك «طقس حار» فى مقابل «طقس بارد»، وبينهما «طقس دافئ أو معتدل»، فهل يمكننا أن نقول: الحرب الساخنة، فى مقابل الحرب الباردة، وإذا كانت الحرب الساخنة هى الحرب بالأسلحة والحرب الباردة هى الحرب بالكلمات، فما هى الحرب الدافئة أو المعتدلة؟.

ومن هنا نقول إن ثمة تضمينا (Connotation) فى المترادفات أو الألفاظ المتقاربة، فقد يكون فى كل لفظ دلالات فرعية إضافة إلى دلالته الأصلية، كما أن كل لفظ يحوى - غالبًا - شحنات دلالية تختلف عما يحويها غيره، وعلى الرغم من أن الترادف التام Complete Synonymy ليس مستحيل الحدوث، إلا أن ذلك لا يمكن أن يكون قانونا مطلقا يصح تطبيقه على كل ألفاظ اللغة.

وقضية الترادف من القضايا التى شغلت القدماء والمحدثين على السواء، وكان لها مؤيدون ومنكرون، فمنهم من أكد على وجود الترادف بمعناه الشامل فى ألفاظ اللغة، ومن هؤلاء: ابن جنى (ت ٣٩٢هـ)، وابن سيده (ت ٤٨٥هـ). ومنهم من أنكر وجود هذا الترادف التام الكامل، باعتبار أن ثمة شحنة دلالية فى كل لفظ لا توجد فى نظيره، ومن هؤلاء: ابن الأنبارى (ت ٢٣٧هـ)، وابن فارس (ت ٣٩٥هـ)، وأبو هلال العسكرى (ت ٣٩٥هـ)، فهؤلاء - وغيرهم ممن تبعهم فى قولهم - لم ينكروا إمكانية وقوع الترادف بمعناه العام، ولكنهم نبهوا إلى وجود فروق دقيقة بين المترادفات[1].

ونحن نميل إلى هذا الرأى الأخير، فلا يستطيع منصف أن ينكر وجود الترادف فى العربية بمعناه العام، فمن ينكر مثلا، أن ثمة ترادفا تاما بين الأفعال: وَضَّحَ.

---

(١) انظر: د. غازى مختار طليمات: نظرات فى علم دلالة الألفاظ عند أحمد بن فارس اللغوى. حوليات كلية الآداب - جامعة الكويت، الحولية الحادية عشرة (١٤١٠ - ١٩٩٠) . ص ٥٢ .

شَرَحَ. بَيَّنَ. فَسَّرَ. فَصَّلَ[١]. ولكن قد ينكر كثيرون وجود ترادف تام بين مريض وعميد، إذ لو كان اللفظان مترادفين ترادفا كاملا وتاما، لكان بإمكاننا أن نستبدل لفظ «مريض» بلفظ «عميد» في البيت المشهور الذى لا يعرف قائله:

يَلُومُونَنِي فِي حُبِّ لَيْلَى عَوَاذِلِي
وَلَكِنَّنِي مِنْ حُبِّهَا لَعَمِيدُ

فلو قلنا: «ولكنني من حبها لمريض»، ما ظفرنا بالدلالات ذاتها، ففي لفظ «عميد» - وهو من هَدَّهُ العشق - من الدلالات وظلال المعاني ما ليس في لفظ «مريض». ويشبه ذلك اللفظان: «ill»، و «Sick» فعلى الرغم من أن المعنى العام واحد، إلا أنهما يختلفان من حيث اختلاف دلالة كل منهما في السياق الخاص، ولذلك تستخدم «ill» بدلالة أخرى، كما في التعبير:

«Bird of ill omen»، كما أن هذا اللفظ «ill» أكثر ملاءمة في الخطاب المهذب Polite Discourse من نظيره «Sick». ومن هذا المنطلق يذهب ألستون William P. Alston إلى أن الترادف التام غير ممكن، وأنه يستحيل وجود لفظين يترادفان ترادفا كاملا، وأنَّ تحقق هذا الترادف فيه - على الأقل - صعوبة كبيرة[٢].

ونخلص من هذا كله إلى الإقرار بوجود الترادف بمعناه العام الشامل، إلا أن هناك فروقا دقيقة بين معظم المترادفات، مما يعنى الاعتراف بأن الترادف التام الكامل ليس مستحيلا، ولكنه قليل، «فهو نوع من الكماليات التى لا تستطيع اللغة أن تجود بها في سهولة ويسر. فإذا ما وقع هذا الترادف التام، فالعادة أن يكون ذلك لفترة

---

(١) انظر: الرماني: الألفاظ المترادفة المتقاربة المعنى.
تحقيق: د. فتح الله صالح على المصرى.
دار الوفاء للطباعة والنشر، المنصورة ج. م. ع، ط ١ (١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م). ص ٧٤، ٧٥.

(2) William P. Alston : "Philosophy of language". library of Congress. U. S. A. 1964. p. 44.

قصيرة محدودة ؛ حيث إن الغموض الذى يعترى المدلول، والألوان أو الظلال المعنوية ذات الصبغة العاطفية أو الانفعالية التى تحيط بهذا المدلول لا تلبث أن تعمل على تحطيمه وتقويض أركانه»[١].

* * *

وقد أفاض القدماء والمحدثون فى الحديث عن أسباب وقوع الترادف فى العربية، ويمكن إجمال تلك الأسباب فيما يلى:

١ - **اختلاف اللهجات بين القبائل**، كأن يوجد شىء ما، فتطلق قبيلة معينة اسما بعينه على هذا الشىء، وتسميه قبيلة أخرى باسم آخر، ويعرف عند ثالثة باسم ثالث... وهكذا تتعدد الأسماء للشىء الواحد. ويتضح هذا فى عصرنا الحاضر، فالهاتف المحمول يطلق عليه: المحمول، ويسمى كذلك (الموبايل) Mobile، كما يسمى فى بعض البلاد: الجوَّال أو النقَّال، ويسمونه فى بلاد المغرب Portable، أى الممكن حمله، أو المحمول.

٢ - **«أن يكون للشىء الواحد فى الأصل اسم واحد**، ثم يوصف بصفات مختلفة، باختلاف خصائص ذلك الشىء، وإذا بتلك الصفات تستخدم فى يوم ما، استخدام الشىء، وينسى ما فيها من الوصف، أو يتناساه المتحدث باللغة»[٢].

ومما يروى فى هذا أن أبا على الفارسى (ت ٣٧٦هـ) يقول: كنت بمجلس سيف الدولة بحلب، وبالحضرة جماعة من أهل اللغة، وفيهم ابن خالويه، فقال ابن خالويه: أحفظ للسيف خمسين اسما، فتبسم أبو على ، وقال: ما أحفظ إلا

---

(١) ستيفن أولمان: دور الكلمة فى اللغة.
ترجمة: د. كمال بشر.
مكتبة الشباب، المنيرة، القاهرة (١٩٧٥). ص ٩٧ .

(٢) د . رمضان عبد التواب: فصول فى فقه العربية .
مكتبة الخانجى بالقاهرة - دار الرفاعى بالرياض، ط ٢، (١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م). ص ٣١٨، ٣١٩.

obeikandl.com

اسما واحدا، وهو السيف. قال ابن خالويه: فأين المهند والصارم وكذا وكذا ؟ فقال أبو على: هذه صفات، وكأن الشيخ لا يفرق بين الاسم والصفة»[١].

فنحن ـ إذن ـ أمام رأيين: رأى يرى أن للشىء اسما واحدا، وما عداه من ألقاب إنما هى صفات له، حتى وإن كانت ألفاظها مختلفة، فالمعنى فى النهاية واحد. ورأى آخر يرى أن كل اسم أو صفة إنما يحمل دلالة تخالف الدلالة الأخرى. وما يجرى على الأسماء يجرى مثله على الأفعال، ولذا فرق البعض بين قعد وجلس، وقرأ وتلا، وأقسم وحلف.

وقد شُغل القدماء بالتفرقة بين الألفاظ المترادفة، فألف عبد الرحمن بن عيسى الهمذانى (ت ٣٢٧هـ): (الألفاظ الكتابية)[٢]، وصنع قدامة بن جعفر (ت٣٣٧هـ): (جواهر الألفاظ)[٣] وكتب الرُّمانى (ت ٣٨٤هـ): (الألفاظ المترادفة المتقاربة المعنى)[٤]، وألف أبو هلال العسكرى (ت ٣٩٥هـ): (الفروق اللغوية)[٥]. كذلك كان للمُحْدَثين إسهاماتهم فى هذا المجال ؛ إذ ألف الأب رُفائيل نخلة اليسوعى: (قاموس المترادفات والمتجانسات)[٦]، وأعد وجدى رزق غالى: (معجم المترادفات العربية الأصغر)[٧].

---

(١) السيوطى: المزهر فى علوم اللغة وأنواعها .
تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم وآخرين، دار الحرم للتراث، القاهرة، ط ٣، (د. ت)، ص٤٠٥.

(٢) عنى بطبعه ونشره: محمود توفيق .
مطبعة التوفيق الأدبية، (١٣٤٤ هـ - ١٩٢٥ م) .

(٣) تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد .
دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط ١، (١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م) .

(٤) تحقيق: د . فتح الله صالح على المصرى .
دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة، ط ١، (١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م) .

(٥) ضبط وتحقيق: حسام الدين القدسى .
دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان . د. ت .

(٦) دار المشرق، بيروت، ط ٣، (١٩٨٣ م) .

(٧) مكتبة لبنان، بيروت، ط ١، (١٩٩٦ م) .

٣ - **التغير الصوتى للكلمة**، إذ يحدث أن يصيب التغير صوتا من أصوات الكلمة، فتنشأ كلمة أخرى مغايرة فى النطق للأولى، والمعنى فيهما واحد، فيتجاور اللفظان، ويصنفان ضمن المترادفات. ومثال ذلك: لَزِقَ ولَصِقَ ولَسِقَ، ومنه: اللازب واللاتب واللاصق، أى اللازق. ويقولون: ضربة لازم ولازب ؛ بإبدال الباء ميما لتقارب المخرج، (فمخرج كليهما من بين الشفتين، وكلاهما مجهور، إلا أن الباء مجهور شديد، والميم مجهور متوسط)، واللازب: الثابت.

٤ - **الاقتراض من اللغات الأخرى**، نحو: يم (آرامى): بحر، واستبرق (فارسى): الديباج الغليظ، وسراى (تركى) قصر، وبستان (فارسى): حديقة، ومشكاة (حبشى): كوة أو نافذة، وطابور (تركى): صف.

٥ - **التطور الدلالى**، ويتضح ذلك فى الألفاظ التى توضع فى الأصل لمعنى خاص، ومع التطور الدلالى يصبح المعنى عامًا. ومثال ذلك قولهم: «رفع عقيرته، أى صوته، وأصل ذلك أن رجلا عُقِرَتْ رِجله فرفعها، وصاح ؛ فقيل بعدُ لكل من رفع صوته: رفع عقيرته»[(١)]. ومن ذلك أيضًا أنهم «يقولون بَنَى الرجل بامرأته إذا دخل بها، وأصل ذلك أن الرجل كان إذا تزوج يُبنى له ولأهله خِباء جديد، فكثر ذلك حتى استعمل فى هذا الباب»[(٢)]. كما يتجلى التطور الدلالى فى الألفاظ الموضوعة فى الأصل لمعنى عام، ثم تستعمل هذه الألفاظ بدلالة خاصة ؛ كما فى «لفظ السبت، فإنه فى اللغة الدهر، ثم خُصَّ فى الاستعمال لغةً بأحد أيام الأسبوع، وهو فرد من أفراد الدهر»[(٣)]. كما يظهر هذا العامل جليا فى المجازات، «فقد تستعمل بعض الكلمات استعمالا مجازيا، يطول

---

(١) المزهر: ١/ ٤٢٩ .

(٢) السابق: ١/ ٤٣٠ .

* والخباء: بيت يصنع من صوف أو وَبَر أو شَعر . والجمع: أخبية .

(٣) السابق: ١/ ٤٢٧ .

العهد عليه، فيصبح حقيقة... فالرحمة مثلا قد اشتقت (من الرَّحِم) موضع الولد... فلعل الرحمة فى الأصل هى عملية النسل من الأرحام، ثم استعملت فى قديم الزمان عن طريق المجاز فى الصلة بين الذين يولدون من رحم واحد. وقد تقادمت العهود على هذا المعنى المجازى حتى أصبح حقيقة، وبهذا نشأ الترادف بينها وبين كلمة مثل (الرأفة)»[١].

وقد وضع علماء العربية شروطًا، لا يتحقق الترادف إلا بها، وتتمثل هذه الشروط فيما يلى:

١ - **الاتفاق فى المعنى بين الكلمتين اتفاقا تاما»**[٢]، بحيث يمكن أن تحل إحدى الكلمتين محل الأخرى وتؤدى معناها.

٢ - **«الاتحاد فى البيئة اللغوية»**[٣]، أى أن تكون «اللغة المشتركة أو الفصحى الأدبية بيئة واحدة، و... كل لهجة أو مجموعة منسجمة من اللهجات بيئة واحدة»[٤].

٣ - **«الاتحاد فى العصر»**[٥]، فلا يجب قياس ما ورد فى عصر ما من كلمات بعصر آخر ليست ثمة صلة بينهما.

٤ - **«ألا يكون أحد اللفظين نتيجة تطور صوتى للفظ الآخر**، فحين نقارن بين الجثْل والجفْل، بمعنى النمل، نلحظ أن إحدى الكلمتين يمكن أن تعد أصلا، والأخرى تطور لها»[٦].

---

(١) د. إبراهيم أنيس؛ فى اللهجات العربية. مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط ٨، (١٩٩٠ م). ص ١٨٣، ١٨٤.

(٢) فى اللهجات العربية. ص ١٧٨.

(٣) فصول فى فقه العربية. ص ٣٢٢.

(٤) السابق. ص ٣٢٣.

(٥) فى اللهجات العربية. ص ١٧٩.

(٦) السابق. ص ٣٢٣.

obeikandl.com

وأخيـراً، فإن الترادف بمعناه العـام موجود بين ألفـاظ اللغة، ويروى فى هذا أن واصل بن عَطَاء زعيم المعتـزلة (٨٠ - ١٣١هـ) كان يتجنب الراء فى خطابه، إذ كان ألثغ الراء، فكانت الرسائل تأتيه، فيـقرأها، فيستبدل بالكلمات التـى فيها حرف الراء كلمات أخرى تخلو منه وتؤدى مـعناها وتقوم مقامها، أما التـرادف الكامل والتام فإنه قليل، ولكنه ليس مستحيل التحقق.

obeikandl.com

obeikandl.com

المبحث الرابع:

الاشتراك اللفظى

تعد قضية المشترك اللفظى من القضايا الدلالية التى أفاض فى دراستها القدماء والمحدثون على السواء، ويُقصد بالاشتراك اللفظى دلالة اللفظ الواحد على أكثر من معنى، ومثال ذلك:

الحَلْق: حلق الشعر.

والحلق: مساغ الطعام والشراب فى المرىء.

والحلق: الشُؤْم.

ومثاله أيضًا:

الخريف: أحد فصول السنة.

والخريف: الساقية.

والخريف: الرُّطَب المَجْنِىُّ.

وإذا كان اللغويون قد اختلفوا حول قضيتى الترادف والتضاد، ذلك أنه قد وُجد من أنكر هاتين الظاهرتين إلى جانب من أيَّدَ وجودهما فى اللغة، فإنه ليس ثمة خلاف بين اللغويين على وجود ظاهرة المشترك اللفظى، إلا أن الإيمان بوجود تلك الظاهرة يتفاوت بين هؤلاء اللغويين، فمنهم من توسع فى مفهومها وبالغ فى وجودها، ومنهم من ضَيَّقَه وحصر ما يعد من المشترك اللفظى فى إطار ألفاظ قليلة، باعتبار أن هناك ألفاظا تستخدم استخداما مجازيا، ولذا فهى تعد من المجاز وليست من المشترك اللفظى فى شىء[1].

---

(١) انظر: نورة يوسف فخرو: روميات أبى فراس . معجم ودراسة دلالية .
مؤسسة دار الريحانى للطبع والنشر، بيروت - لبنان . ط/ (١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م) . ص ٣٥٨ .

obeikandl.com

وكانت نظرة القدماء إلى هذه القضية ورؤيتهم فى إمكانية تعدد دلالات اللفظ الواحد تتسمان بقدر ما من التسامح، ذلك أنهم لم يلحظوا أنه قد يكون للفظ الواحد معنيان: أحدهما حقيقى، والآخر مجازى، وعليه «فلا يصح أن يعد هذا من المشترك اللفظى فى حقيقة أمره»[١]، فلفظ «الليث» ـ مثلاً ـ يعنى «الأسد»، ويعنى أيضًا «الشجاع»، وبين الدلالتين صلة غير خافية، فالدلالة الثانية مجازية، أما إذا قيل إن من معانى الليث: العنكبوت[٢]، وجب إدخال اللفظ فى عداد المشترك اللفظى، لأنه ليس ثمة صلة بين هذا المعنى وسابقيه.

ويرتبط اتساع دائرة المشترك اللفظى باتساع متطلبات العصر ومتغيرات الحياة التى تضيف إلى الألفاظ دلالات جديدة لم تكن موجودة من قبل، من ذلك مثلا لفظ «الفرقة» الذى تشير دلالته الأصلية إلى الطائفة من الناس، ولكن يلاحظ أن هذا اللفظ اكتسب دلالات أخرى ذات صلة وثيقة بحاجات العصر، فهو مصطلح رياضى بمعنى الفريق Team، ومصطلح عسكرى بمعنى دورة تدريبية، وهو أيضًا مصطلح تعليمى جامعى يقابل مصطلح «الصف» فى مراحل التعليم العام.

كذلك هناك لفظ «المخالفة»، الذى يستخدم فى المجال الرياضى ـ فى بعض البيئات اللغوية العربية ـ بمعنى الخطأ Foul، وهو يستخدم أيضًا فى المجال الشرطى والمرورى، ولفظ «المقابلة» الذى تشير دلالته العامة إلى التقابل أو اللقاء، وهو أيضًا مصطلح بلاغى يعنى «إيراد الكلام ثم مقابلته بمثله فى المعنى واللفظ على جهة الموافقة أو المخالفة»[٣]، ويستخدم اللفظ الآن فى بعض البيئات اللغوية بمعنى المباراة Match.

---

(١) د. إبراهيم أنيس: دلالة الألفاظ.
مكتبة الأنجلو المصرية. ط ٤ (١٩٨٠ م). ص ٢١٣.

(٢) القاموس المحيط: باب الثاء، فصل اللام. ص ٢٢٥.

(٣) أبو هلال العسكرى: كتاب الصناعتين.
تحقيق د. مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان ط ١ (١٤٠١هـ - ١٩٨١م). ص ٣٧١.

واللافت للنظر أنه يختلف التخاطب باختلاف المستويين البيئى والثقافى فى المستوى العامى للكلام، وتختلف تبعا لذلك دلالة اللفظ من بيئة إلى أخرى وتتسع دائرة استعماله أو تضيق، فمثلا لفظ مصر Egypt يعنى فى المجتمع الخارجى: القطر المصرى A. R. E، والكلمة عند أهل الريف فى مصر تعنى القاهرة Cairo، بينما لو قال أحدهم ـ ممن يعيش فى ضواحى العاصمة ـ إنه يريد الذهاب إلى مصر لعرفنا أنه يقصد وسط المدينة Toun Center.

وتعود نشأة المشترك اللفظى إلى الأسباب التالية:

١- **المجاز**: وفيه يتحول استعمال الكلمة من معناها الحقيقى إلى معنى مجازى. ويتضح ذلك فى كلمة (اليد)، التى تعنى فى الأصل الكفّ، ثم صارت الكلمة تدل على النعمة والإحسان ؛ لأنهما يكونان بالإعطاء، الذى تكون وسيلته اليد. يقول الشاعر:

له علىّ أيادٍ لستُ أكفُرُها
وإنما الكفرُ ألا تُشكَرَ النِّعَمُ[1]

كما أن الكلمة تعنى أيضًا بطريق المجاز: القوة، والسلطان، والطاعة، والقدرة...

٢ - **الاقتراض من اللغات الأخرى**، إذ يحدث أن يدخل اللغةَ ألفاظٌ أعجمية، تشبه فى صورتها ونطقها ألفاظا أخرى فى اللغة الأصلية المقترِضة، «فينشأ عن ذلك كلمتان متحدتان فى النطق مختلفتان فى المعنى، وتنتمى كل واحدة منهما فى الأصل إلى لغة مختلفة، كما رأينا فى كلمة (كلية)، التى هى فى الحقيقة كلمتان، إحداهما سامية الأصل تعنى العموم والشمول، وثانيتهما ترجع إلى

(١) انظر: لسان العرب. مادة: يدى. ص ٤٩٥٢، ٤٩٥٣.

الأصل الإنجليزى College التى تعنى تلك المؤسسة العلمية التى تنضوى تحت لواء الجامعة»[١].

٣ - **اختلاف اللهجات**، حيث يكون للفظ الواحد معنى بعينه عند قبيلة ومعنى آخر مغاير له عند قبيلة أخرى، فالكوثر: «النهر، والكوثر: الغُبار بلغة هذيل... والربيع: ما تعتلفه الدواب من الخضر، والربيع من الأزمنة بعد الشتاء، والربيع بلغة أهل الحجاز: الساقية الصغيرة تجرى إلى النَّخْل، والجمع: الرُّبْعان»[٢].

٤ - **التطور الصوتى**، إذ قد يحدث أن «تتغير بعض أصوات الكلمة، فتتطابق مع كلمة أخرى أصيلة لم يصبها مثل هذا التغير»[٣]، ومثال ذلك كلمة (دعم)، إذ يقال دَعَمَ الشىءَ يدعمه دعما: مال فأقامه.. والدعم: القوة والمال»[٤]، والدعم كذلك: الطعن والرمى بشىء، «وأصل الكلمة بالمعنى الثانى، هو (دَحَمَ)، بالحاء، فقد تطورت هذه الحاء، وجهرت، بسبب مجاورتها للدال المجهورة، فقلبت إلى نظيرها المجهور، وهو العين، فصارت: (دعم)، والمعنى لذلك بكلمة: (دعم)، بمعنى قوَّى، فنشأ الاشتراك اللفظى فى هذه الكلمة»[٥].

❁ ❁ ❁

(١) د. عاطف مدكور: علم اللغة بين القديم والحديث. دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، (١٩٨٦). ص ٢٣٢.

(٢) د. فوزى مسعود: المتجد فى اللغة. دراسة لغوية. مطبعة حسان، القاهرة، (١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م). ص ٨١، ٨٢.

(٣) علم اللغة بين القديم والحديث. ص ٢٣١، ٢٣٢.

(٤) لسان العرب. مادة: دعم. ص ١٣٨٤.

(٥) فصول فى فقه اللغة. ص ٣٣٢، ٣٣٣.

obeikandl.com

المبحث الخامس:

التضـــاد

يقصد بالتضاد ورود اللفظ الواحد على معنيين مختلفين، ونعني بالمخالفة ـ هنا ـ أن يكون كل معنى من هذين المعنيين ضدا للآخر. وثمة اختلاف بين علماء اللغة والمشتغلين بها فى النظرة إلى ظاهرة الأضداد، باعتبارها ظاهرة من ظواهر العربية، مثله فى ذلك مثل الترادف. فقد أيد فريق وجود تلك الظاهرة، وأورد فى ذلك ما رآه من حجج وأسانيد، ومن هؤلاء الخليل بن أحمد (ت ١٧٠هـ)، وابن الأنبارى (ت ٣٢٨هـ) وابن فارس (ت ٣٩٥هـ) وابن سيده (ت ٤٨٥هـ)، وأنكر فريق آخر وجود هذه الظاهرة فى العربية، ومن أشهر هؤلاء ابن دُرُسْتَويه (ت ٣٤٧هـ). وكانت حجة منكرى ظاهرة التضاد أن اللغة وُضعت للإفصاح عن المعنى والتعبير عن الفكر، ووجود لفظ واحد يعبر عن معنيين مختلفين يؤدى إلى الغموض وانغلاق المعنى مما يتنافى وطبيعة اللغة.

وعلى الرغم من قلة الأضداد فى العربية إلا أن ثمة حقيقة مهمة، وهى أن هناك كثيرًا من الألفاظ التى تعد من الأضداد تميل الآن إلى الاستقرار على معنى واحد من المعنيين اللذين كانا لكل لفظ، من ذلك مثلا لفظ «المولى» بمعنى السيد والخادم، فنلاحظ أن اللفظ يستخدم الآن بالمعنى الأول، سواء أكان ذلك فى مستوى الخطاب الأدبى أم فى مستوى الخطاب النفعى، ولا نكاد نجد استخداما له بالمعنى الثانى، ويرجع ذلك إلى طبيعة التغيرات الاجتماعية التى أحدثت هذه التغيرات الدلالية. ومن هذه الألفاظ أيضًا لفظ «التوَّاب»، وله معنيان: التواب هو الله تعالى، وهو أيضا التائب، إذ نلحظ أن دلالة اللفظ تكاد تستقر على حال واحدة، وهى الدلالة على الله عز وجل.

ويضاف إلى ذلك أن ثمة ألفاظًا قال العرب إنها من الأضداد، مثل: المفازة، أى الصحراء، والملدوغ، أى السليم، والبصير، أى الأعمى... فهذه الألفاظ وأمثالها مما تشير إلى التفاؤل وتوحى بعكس المدلول الحرفى للفظ إنما ترجع إلى أن «التفاؤل والتشاؤم من غرائز الإنسان، التى تسيطر على عاداته فى التعبير إلى حد كبير، فإذا شاء المرء التعبير عن معنى سيئ، تشاءم، من ذكر الكلمة الخاصة به، وفر منها إلى غيرها، فجميع الكلمات التى تعبر عن الموت والأمراض والمصائب والكوارث، يفر منها الإنسان، ويكنى عنها بكلمات حسنة المعنى»[(١)]. ويعنى ذلك أن هذه الألفاظ وأمثالها ليست من الأضداد فى شىء، وإنما هى من قبيل تلطيف اللفظ وتحسينه، والتعبير عن المعنى السيئ بلفظ مستحب.

ونخلص إلى القول بأن قضية الأضداد من القضايا اللغوية التى لم تحسم بعد، والتى اختلف حولها القدماء والمحدثون، ما بين مؤيد لها ومنكر. ونحن نميل إلى الإقرار بوجود ظاهرة الأضداد فى اللغة، ولكنها ظاهرة محدودة فى ألفاظ قليلة يمكن إحصاؤها، كما أن طبيعة التطور اللغوى جعلت كثيرًا من الألفاظ التى تعد من الأضداد ألفاظًا مهجورة، مثل: الجَوْن: للأبيض والأسود، والصريم لليل والنهار، والنَّحَاحَة: للسخاء والبخل، والربيبة: للتى تُرَبِّبُ والتى تُرَبَّب[(٢)].

وترجع نشأة الأضداد إلى الأسباب التالية:

١ - اختلاف اللهجات، وذلك أن يكون اللفظ - فى الأصل - ذا معنى واحد، ثم يصير للفظ معنيان، وذلك نحو «الصَّريم، يقال لليل صريم، وللنهار صريم؛ لأن الليل ينصرم من النهار، والنهار ينصرم من الليل؛ فأصل المعنيين من باب واحد وهو القطع. وكذلك الصارخ: المغيث، والصارخ: المستغيث، سميا

---

(١) فصول فى فقه اللغة العربية . ص ٣٤٥ .

(٢) الربيبة: بنت امرأة الرجل من غيره، والحاضنة. وربَّ الولدَ ربا: تعهده بالرعاية، والمفعول (ربيب)، والمؤنث بتاء.

بذلك لأن المغيث يصرخ بالإغاثة، والمستغيث يصرخ بالاستغاثة، فأصلهما من باب واحد. وكذلك السُّدْفَة: الظلمة، والسُّدْفَة: الضوء، سميا بذلك، لأن أصل السدفة الستر، فكأن النهار إذا أقبل ستر ضوءُه ظلمةَ الليل، وكأن الليل إذا أقبل سترت ظلمتُه ضوءَ النهار»[١]، والسدفة: الظلمة، عند تميم، وهى الضوء، عند قيس.

٢ - **التفاؤل والتشاؤم**، ويتضح ذلك فى النفور من استخدام لفظ غير مستحب للتعبير عن معنى سيئ، ومثال ذلك التعبير عن الصحراء بالمفازة، وهى مكان مهلك. ومنه أيضًا إطلاق (السليم) على الملدوغ، والناهل على العطشان. وفى العامية المصرية يستخدم التعبير: (فلان بعافية)، إشارة إلى مرضه.

ويتصل بهذا أيضًا الرغبة فى اتقاء الحسد باستخدام ألفاظ لا تعبر عن المعنى المراد، بل تجىء تلك الألفاظ معبرة عن عكس الدلالة المقصودة، من ذلك إطلاقهم لفظ (الشوهاء) على المرأة الجميلة. «قال أبو حاتم: لا أظنهم قالوا للجميلة: شوهاء إلا مخافة أن تصيبها عين، كما قالوا للغراب: أعور، لحدة بصره»[٢].

٣ - **التأدب**، ويبدو ذلك فى إطلاق لفظ (البصير) على الأعمى.

٤ - **التهكم**، كما فى قولهم للمجنون: يا عاقل. وفى العامية المصرية يقال لمن يتطاول باللفظ: يا مؤدب، ويقال للبليد: يا شاطر[٣].

---

(١) المزهر ١/ ٤٠١.

(٢) أبو حاتم السجستانى: الأضداد.
تحقيق: د. محمد عبد القادر أحمد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، (١٤١١ هـ - ١٩٩١ م). ص ٢٢٥.

(٣) وردت كلمة (شاطر) بمعنى اللبيب الفطن فى (المحاسن والأضداد) للجاحظ (ت ٢٥٥ هـ). ص ٢١٧.
مكتبة القاهرة، بالصنادقية بالأزهر، ط ١، (١٩٧٨ م).

٥ - المجاز، ويتضح ذلك فى لفظ (الأمة)، إذ «يقال: الأمة للواحد الصالح الذى يُؤْتم به، ويكون عَلَما فى الخير، كقوله عز وجل: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا ﴾(١). ويقال الأمة للجماعة، كقوله عز وجل: ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ ﴾(٢) (٣).

وقد وضع اللغويون شروطًا لتحديد الألفاظ التى تعد من الأضداد، ومن هذه الشروط ما يلى:

١ - **أن يكون اللفظ الواحد دالا على معنيين فى إطار اللغة الواحدة**، وقد نبه إلى هذا ابن دريد فى الجمهرة حين قال: «الشَّعْب: الافتراق، والشَّعْب: الاجتماع، وليس من الأضداد، وإنما هى لغة قوم، فأفاد بهذا أن شرط الأضداد أن يكون استعمال اللفظ الواحد فى المعنيين فى لغة واحدة»(٤).

٢ - «**اتحاد الكلمة ومتعلقاتها فى المعنيين**؛ لأن أى تغيير فيها، أو فى متعلقاتها، يخرجها عن كونها بذاتها تحتمل المعنيين المتضادين»(٥)؛ ولذا رد الأنبارى (ت ٣٢٧هـ) رأى قطرب (ت ٢٠٦هـ)، الذى عَدَّ «من الأضداد قولهم: بَدُن الرجل، إذا حمل اللحم والشحم، وبدَّن تبدينا، إذا أسن وكَبِر وضَعُفَ»(٦)، فقال: ليس الأمر عندى على ما ذكر قطرب، لأن «بدَّن» لفظه يخالف لفظ «بَدُن»، وما لا يقع إلا على معنى واحد لا يدخل فى حروف الأضداد»(٧). كما

---

(١) سورة النحل . الآية (١٢٠) .

(٢) سورة القصص . الآية (٢٣) .

(٣) الأضداد لمحمد بن القاسم الأنبارى . ص ٢٧٠ .

(٤) المزهر: ١/٣٩٦ .

(٥) فصول فى فقه العربية . ص ٣٤٠ .

(٦) الأضداد ص ٤٠٠.

(٧) السابق . ص ٤٠٠، ٤٠١ . وانظر: ص ١٥٣ .

obeikandl.com

لا يعد من الأضداد: (راغ على كذا)، بمعنى أقبل، و (راغ عن كذا) أى ولى وذهب، لاختلاف حرف الجر. ومنه كذلك: (رغب فى)، و (رغب عن).

٣ - **أن يكون اللفظ الواحد دالاً على معنيين متضادين، ولذا فإن قول قطرب إنه** «من الأضداد قولهم: ألِيَت المرأة تَألَى، إذا عظمت أَلْيَتُها، وألِيَت الشاةُ وغيرها، إذا قُطِعَتْ أَلْيَتُها»[١] ليس بصحيح ؛ «لأن كل واحد من الحرفين ينفرد بمعنى واحد، ولا يقع على معنيين متضادين»[٢].

❁ ❁ ❁

(١) السابق . ص ٤٠٦، ٤٠٧ .

(٢) السابق . ص ٤٠٧ .

obeikandl.com